جدوى الشعر في عالمنا اليوم

د/ عبد الرحمان تبرماسين
جـــــامعة.بسكرة

إن الذي شد ذهني ولفت انتباهي السؤال الآتي "ما الذي يفعله الشعر الآن؟"أهي الدعوة الجديدة المتجددة لفاعلية الشعر،أو لبعث استراتيجية جديدة لإعادة الفاعلية له.

فوظيفة الشاعر المبدع قبل كل شيء هي إثارة الجمال أي الاستفزاز، وإثارة الانتباه، ولفت القلوب، ومن خلالها الأبصار إلى الذي يراه جميلا، أو مثيرا بطريقته الخاصة والتي في الغالب ما تكون الإيجاز أو المفارقة التي تحدث منه، لأن مهمته "أن يخلق ما لم يعرف حتى الآن، وأن يجعل صورة الإنسان كما هو في عصره. يقول آلان تيت: «إن رجل الأدب لم يشارك مشاركة تامة في حركة المجتمع فحسب بل علمنا كذلك أنه ليس هناك إنسان آخر قد فعل»(1).

الشاعر يريد في عصره بيان فاعليته في التعبير عن ذاته، يريد أن يسمعنا نداءه:

يا مدى أين مداي؟!
ذاك ظلي أم ترى الظل
انتشاء؟!
و....أتوه
بين نفسي وبيني
أنزع الخوف
والغد انبعاث(2)

أو يحاول أن يبلغنا رسالته:

يا أحمد العربي/ سنموت
لو مات
العراق/لأننا فيه انتصرنا/
واعتلينا قمة الأمم
التي لم تتحد إلا لقَتْله.(3)

أو يرغب في التواصل والتواصل بين الشاعر والمجتمع يعيد الدينامية البناءة للشعر خصوصا ولسائر الفنون عموما.

إن الشعر معاناة وآلام حادة يعقبها استراحة وتنفس وهذه المعاناة في الغالب ما يكون سببها طموح لإثبات الذات أو لجعلها خالدة ومن ثم فإن ما ورد على لسان بوذا «أنا أعاني وأطمح إذن أنا موجود Je souffre et je désire, donc je suis ».

فالشاعر إذن يطمح فيعاني ليجد نفسه في قائمة الخالدين، وقد يخلد وهو منبوذ لأن ما يقوله لا يروق الآخرين، من بيدهم زمام الأمور الذين لا يقبلون إلا بالفن المهادن، إن صحت كلمة الفن على أقوالهم، وأشعارهم، لأن الفن دائما يسمو بنفسه وبمبدعه ولا يقبل أن يعيش في الظل، أو يقبل الأيدي، أو يمدها أيضا طلبا للاستعطاف، وإن فرغ مزود السلطان يحيل الكلام: أعطه يا غلام ألف ألفٍ. إلى، لقد أعطانا كلاما وأعطيناه كلاما.

إن المعاناة التي سببها الطموح، أو الإبداع في الحقيقة بالنسبة للشاعر ما هي إلا ذروة الدينامية أو الفعالية التي يعيشها المبدع الأصيل المتوتر الذي لا يهدأ له حال إلى أن يعبر أو أن يترك أثرا يختلف عن سائر الآثار الأخرى، لا لكونه يعيش ويلامس الواقع، إنما لكونه يتجاوز الواقع ويتخطى المضارع القريب، وإنما لأنه يفتح كوة نورانية تضيء المستقبل البعيد، لا يستطيع أن يفتحها إلا فنان موهوب له استشرافات مستقبلية وحس لا يرقى إليه إلا الفنان الخالد.

ولهذا قدست العرب قبل وبعد مجئ الإسلام الشاعر ومنحته حقه فقدمته « على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويُهيب من فرسانهم ويُخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم »(4)

لقد كان الشاعر الواحد يساوي مجموع القبيلة بكل فرسانها ومقاتليها، وكانت كلمة واحدة منه تشعل النار لما لها من مفعول أقوى من السيف لأنها تسري بين القبائل وتداول بين الناس ولذا كانوا يقيمون الأعراس عند ولادة شاعرهم ومن ثم قالوا " الشعر ديوان العرب".

وهنا لا يجب أن تؤخذ كلمة ديوان بمثابة مجلد يحوي صفحات التاريخ فقط بل هي مجمع القبيلة ومنتداها ومكتبتها التي يتعلم منها الشاعر مثالب القبائل وهو إيوان بالنسبة للأنظمة الملكية وما إلى ذلك.

ولما جاء الإسلام منح الشاعر حقه، وقدمه على غيره، وأعطاه منزلته التي يستحقها،وخلعت عنه بردة الرسول،ودعا له بالحماية والمؤازرة،إذ ورد في الأثر «اهجوهم وروح القدس معك» وقبل هذا كان للقرآن الكريم موقفا من الشاعر (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)(5) قال الرسول صلى الله عليه وسلم أو في ما معناه: « لا تدع العرب الشعر حتى تترك الإبل حنينها».

بالرغم من أن النص القرآني أثر في الناس وجعلهم يقبلون عليه بدل الإقبال على الشعر، فانحصر مؤشر الشعر وتقلص، لأن مميزات الشعر الخالد « التفرد الذي لا يقبل التكرار لا في ماض ولا في حاضر ولا في مستقبل»(6) وهذه الميزة صارت

للنص القرآني لما حواه من بيان إيجاز وحِكم وقصص، وفوق ذلك لغة سامية تتجدد كلما أعدنا قراءة النص.
ورغم ذلك فقد بقي للشعر دور يلعبه وبقي للشاعر مقامه الذي يناسبه وفي ذلك قالت العرب: « من أصمت الشاعر أهلك العشائر» وهذا المثال ينطبق على فعل القص في العصر الراهن، فالشعوب التي أدركت أن للكلمة دورها في بناء الأمم أطلقت قيد الشعراء وفكت صراح ألسنتهم إيمانا منها بأن الفن لا يقيد وإذا قيد لم يعد فنا ولا معبرا عن وجدان.
لقد تجاوز الشعر في العصر الحاضر مرحلة الغناء والترف والمجالس الخمرية والموسيقية والتسلية والترويح عن النفس، وتخطى ذلك مرحلة أخرى جديدة تعبر عن تجربة جديدة تهدف إلى توجيه الوعي الفكري والإنتاجي لدى الشعوب وإلى تنشيط الذهن، وشحذ النفس وإثرائهما بالمادة الثقافية، واستحضار كل العناصر التي تمول هذه المادة وتجعلها عتية قوية بفعل مصادر تلك العناصر التاريخية والأسطورية والتراثية والدينية وما إلى ذلك، بل يوجه السياسة والاقتصاد حينما يكون هذا الشعر نابعا من نفس بصيرة ومثقفة ومتمردة أيضا لأن النفس غير المتمردة تكون في الغالب منبطحة أو عبارة عن ذنب تابع يردد زيف الشعارات وبلغتنا الجزائرية" خبزيست"
إن الشعر من الفنون الراقية التي صاحبت الإنسان منذ القدم في أفراحه وأحزانه في انتصاراته وانكساراته مثله مثل فن النحت والمسرح لدى الإغريق ولهذا فهو قادر على صنع الحياة النفسية والفكرية للإنسان أيا كان.
و«الإنسان هو الوحيد القادر على التفكير من بين المخلوقات» (7) جميعا، وهذه ميزة سامية منحها الله لخليفته في الأرض ليجسد الحق في أبها صوره وليحقق العدالة لكن ليس بمنأى عن الشر أو فعله لأن النفس البشرية « قبضة من تراب أي مجموعة من الشهوات»(8) الأمارة –ربما- بالسوء، « ونفخة من الروح أيضا أي مجموعة من المثل(9)» والقيم والأخلاق والتي تسعى النفس الأمارة بالخير إلى تحقيقها وتجسيدها، ذلك هو الإنسان السوي في تكوينه الأساسي.
والشاعر كإنسان سوي هو هذه المجموعة من القيم والشهوات وكمبدع هو ذلكم الرجل العصابي المتوتر الذي لا يهدأ له بال، ومفطور على البيان وله القدرة على الإبانة والإفصاح عن أفكاره وأحاسيسه فماذا نطلب منه، من غير القيم السامية وأي قيمة أنفع من قيمة الخير والحق والجمال. أو قيمة الإيمان بالله والسمو الروحي، هذه رسالته الحقيقية التي خلق لها ويعيش من أجلها.

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم(10)

هذا الذي يطلب من الشاعر: الحث على الوفاء بالعهود والتمسك بالسلام وهو الخيار الإستراتيجي الأمثل الذي تبني به الأمم حضارتها فتبلغ قمم الإبداع بفضل ما تتمتع به من أمن، وهذا ما نلمسه في الدول التي حازت أمنا.
إن الحث على فضيلة كالسلم ودحر صورة الحرب واللا أمن أفضل من إنتاج سنة من الماديات لأن من ذاق مرارة الحرب وعاش صورتها البشعة وخرابها الأليم ليس كغيره.

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجّم
متى تبعثوها، تبعثوها ذميمة وتضْرَ إذا ضَرَّيتموها فتضرم(11)

ويقولَ الشاعر التونسي عمار النميري:

الحرب...ها هنا
تقرع الطبول
هلموا...بني وطني
أولي الأمر منّا...
انهضوا منْ غَيْمة الفصولْ
وانشُدوا للعزّة...للوفاق:
«إذا شارفَ العشقُ فينا نواحي الوطن وطننا واحدٌ»
وشمسنا واحدةٌ
وارفة الظلالْ.(12)

إن الشاعر ما هو إلا وجدان وعقل والوجدان يطغى على العقل للحساسية المفرطة التي يتمتع بها المبدعون وفي طليعتهم الشعراء ومن ثم فالنسبة بينهما«من 60% للوجدان و40 % للعقل وهذا يعني أن الإنسان يظل سويا ما احتفظ بهذه النسبة فإذا زاد الوجدان كان الحمق وإن نقص كان الحلم ونادرا ما ينقص لذلك يقل الحلماء بين الناس ويكثر الحمقى»(13) لكن هذا التفاوت في النسب هو ما يجعل الشاعر أكثر إحساسا بالألم وأوجاع الآخرين ، والتي هي أوجاعه ويسعى إلى إسعاد الناس وتبديد تعاستهم يقول علالة القنوني:

يا شعر إن لم تبدد تعاسة التعساء
من يلبسون هوانا ويُطعمون بداء
فلست منك ولست عقيدتي وانتماء
ولا اختلجت بصدري ولا سمعت غنائي(14)

والشاعر أنه فان كجسد لكن كروح لا ولذلك قال:

أنا جئت لكي أمضي
ولكن أترك الأرض بها بحر من الومض(15)

في الوقت الراهن العديد من الروائيين وبعض أنصار الرواية يعتقدون أن حاجتنا إلى الشعر ستقل بل أن شعلة الشعر ستخمد وتقل وأن نار الرواية ستبرز وتطغى والحقيقة عكس ذلك، فالشعر معدن كالذهب سيبقى في حاجة إليه ونتداوله مادامت نار أعراسنا متقدة وأفراحها قائمة ولا يهم مؤشر البورصة ارتفع أو انخفض « لأن حاجتنا للشعر بصفته وجدانا لن تقل بل ستزداد كلما تقدم بنا الزمن في مجتمع الصناعة»(16)

لم يبق لأنصار الرواية إلا أن يقولوا " إن الشعر مثير ضار للعواطف" وأنه لا يليق لحياة الفرد والجماعة ولأنه يمثل في أقصى الحالات مجتمعا رجعيا، لكن صيرورة التاريخ ومختلف الصراعات التي عاشها الإنسان بدءا بصراعاته مع الطبيعة، لم تثبت ذلك ولم تؤكده أيضا، ولذا كان رد أر يسطو"أن الشعر ممتع يساعد على تطهير العواطف" بل ويكبح جماحها متى أراد للبشرية بمختلف ألوانها وأديانها أن تعيش في كنف الفضيلة والطهارة والسعادة. وغاية الشعر ليس الإثارة ونشر الرذيلة بقدر ما هي إسعاد البشر والتقريب بينهم ونقل صور المعاناة من هذا إلى ذاك ومن الآخر إلى هذا فيجعلهم يدركون ويحسون آلام بعضهم فيسعدون بأجمل اللحظات ويشقون بأمرها، ويعيشون حالة من التوازن النفسي كتلك التي مر بها مبدع القصيدة التي استمعوا إليها أو قرءوها.

« إن الشاعر الدرامي يحاول أن يجعل للتجربة الإنسانية معنى فهو يربط بين أجزائها المفككة المنتقاة من الحياة الواقعية فيركزها ويبرز أحداثها ويفسرها ويخلق منها تجربة فنية»(17) فيترك بصماتها في سلوك الإنسان من خلال محاولته إعادة خلقه للواقع من زاويته وانفعالاته ورؤيته الخاصة للأشياء والأحداث. ورغم ذالك فلا يمكن تجاهل أثر الغريزة بل الغرائز التي أودعها الله في نفوس البشر على سلوك الإنسان لأن الله (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث)(18) ورغم ذالك فإن « النفس دائما تميل إلى الحق، وفيها ميل أكبر إلى التدين وإلحاح لا ينقطع لتذوق الجمال على اختلاف عناصره(19) » ولذا يقوم الشعر بتثقيفنا والزيادة في وعينا ومن ثم يؤثر في أعمالنا عموما والفنية خصوصا وهو بذلك لا يشترط فيه أن يكون نفعيا أو ماديا بالضرورة لأن الفن لا شأن له بالمنفعة المادية، ونكون مخطئين إذا قسنا أعمال المبدعين والشعراء بالأعمال المادية الملموسة المنتجة في المصانع والحقول، شأنهم شأن المعلمين والأساتذة في المدارس والجامعات.

ونخلص في النهاية إلى:

الشعر يمثل غذاء ثقافيا لإنسان العربي، ويمثل قضية كل إنسان عربي .

يتطرق لشؤون وطنية وقومية، ويصور العلاقات القائمة بين الأمة والقائمين عليها إيجاب وسلبا وهذه صيغة تسود الأعمال الشعرية لمعظم الشعراء الذين يحملون هموم الأمة والوطن والشعب.

والشعر « لم يعد ترفا زائدا أو متعة عابرة أو تسلية رخيصة للعامة والخاصة. الأدب في العصر الحديث أصبح مجمعا لمختلف الثقافات والحضارات والآداب العالمية والتطلعات الإنسانية وهو فوق ذلك يحكي قصة المشاعر الإنسانية عبر التاريخ في جحيم ثورتها ونعيم محبتها يحكي قصة صراعها من أجل البقاء، بكل ما يحمله الصراع من خير وشر وفضيلة ورذيلة وسعادة وشقاء(20) »

إحالات:

1- آلان تيت دراسات في النقد ترجمة الدكتور عبد الرحمان ياغي ط2 مكتبة المعارف بيروت 1980 ص 126

2- ابتسام الخميري. ديوان خواطر مسافر.ط2005 دار أديكوب للنشر.تونس ص28

3- محمود غانمي. ديوان حبيبي على الدنيا السلام. دار الإتحاف للنشر. تونس ص73

4- الجاحظ. البيان والتبيين .ج1. دار إحياء التراث العربي بيروت1968 ص146

5- سورة الشعراء آية124 إلى 127

6 - د. زكي نجيب محمود . مع الشعراء . ط2 دار الشروق بيروت1982ص 132

7 - د. خالد أبوجندي. تأثير النص الأدبي في السلوك. محاضرة ألقيت في الملتقى الأدبي الدولي حول جدوى الأدب في عالمنا اليوم.14 ديسمبر1986 جامعة باتنة. الجزائر ص6

8- نفسه ص7

9- نفسه ص7

10- د. بدوي طبانة. معاقات العرب ط3 دار الثقافة بيروتص152

11- نفسه ص152

12- عمار النميري. ديوان عصافير بابل. ط1 الشركة التونسية للنشر وتنميةفنون الرسم 2003 ص86

13 - د. عبد الله شيخ عووضة حمور. أزمة الإنسان و الأدب في حضارة اقتصاد الآلة ومجتمع الصناعة. محاضرة ألقيت في الملتقى الأدبي الدولي حول جدوى الأدب في عالمنا اليوم.14 ديسمبر1986 جامعة باتنة. الجزائر ص5

14 - علالة القنوني. ديوان كاف ونون منشورات اتحاد الكتاب التونسيين فرع بنزرت الطبعة الأولى. تونس ص5

15 - نفسه ص6

16- عبد الله شيخ عووضة حمور.أزمة الإنسان و الأدب في حضارة اقتصاد الآلة ومجتمع الصناعة ص10

17 - د. عدنان يوسف سكيك. ضرورة الأدب لحياة الفرد والجماعة. محاضرة ألقيت في الملتقى الدولي ، جدوى الأدب في عالمنا اليوم جامعة باتنة

18- سورة آل عمران آية 14

19- خالد أبو جندي . تأثير النص الأدبي في السلوك

20 - د. عدنان يوسف سكيك. ضرورة الأدب لحياة الفرد والمجتمع. محاضرة ألقيت في الملتقى الأدبي الدولي حول جدوى الأدب في عالمنا اليوم.14 ديسمبر1986 جامعة باتنة. الجزائر ص8